الصوم الاربعيني في القرن الرابع

في الشرق والغرب

اي في انطاكية واورشليم والاسكندرية وروما

بقلم نصرالله نصرالله (الشبك)

هل وُجد الصوم الاربعيني في القرن الرابع في الكنيسة عموماً ، وفي كنائس انطاكية واورشليم والاسكندرية وروما خصوصاً ؟ وعلى فرض وجوده فكم يوماً كانت مدته ، ما هي نوعية التقشفات الممارسة في ذلك العصر ؟

مسائل جمة نبذل قصارى الجهد في الايجاب عنها معوّلين ، قدر الطاقة ، على مؤلفات الكتبة الكنسيين في ذياك العصر[1] . لكن قبل الشروع في البحث يحسن بنا ان نقول كلمة عن حالة الصوم في القرون الثلاثة الاولى تتمة الفائدة .

ان اقدم شهادة تتكلم عن الصوم قبل عيد الفصح هي القديس ايريناوس وقد اطلعنا عليها اوسابيوس القيصري من جهابذة مؤرخي القرن الرابع[2] . ويُستدل منها ان الصوم كان يشمل الايام الاخيرة من جمة الآلام . وعلى رأي العلّامة دوشين (Mgr. Duchesne) انه ، سواء كان هذا الصوم يوماً واحداً او اكثر يجب ان يعتبر متصلاً وغير منقطع . ويتبع ذلك بقول ترتليانس[3] انه لا يعرف

---

١) لنا ملاحظة في فاتحة هذا المقال وهي اننا لا نعوّل على نصوص بعض الكتب مثل: Les Canons d'Hyppolyte, La Constitution Apostolique Egyptienne, le Testament du Seigneur. لاننا لا يمكننا ان نحقق بتأكيد زمان تأليفها .

٢) *Cf* H. E. V, 25 ; *Patrologie Grecque* (Migne) t. XX, col. 501

٣) Tertullien : *De Jejunio*, 2, 13. 14 ; *De Oratione*, 18.

الرسم ١ – الشخص الراكع

الرسم ٢ – رأس عمود مزخرف بنقوش على شكل ورق الليلاب والكنكر

الرسم ٣ – منظر لقطع الاعمدة المضلّعة المروّجة – وفوقها خط السكة الحديدية – ويُرى في الاسفل الى اليمين قطعة عمود كبيرة رُقمت عليها الكتابة اللاتينية .

الرسم ٤ – الحائط الاقصى لرواق الاعمدة الكبير وفي اسفله ، امام البدوي ، تظهر بعض آثار النيفا .

صوماً فرضته الكنيسة الكاثوليكية غير يوم عيد الفصح ، وذلك حسب المعنى الخاص الذي يفهم به كلمة « الفصح » ، اي يوم الجمعة العظيمة . ويشهد ملفان الكنيسة الافريقية ان الصوم كان يشمل فقط الايام التي ارتفع فيها العروس اي يومي الجمعة والسبت حتى صباح الاحد [١] .

وفي القرن الثالث امتد الصوم الى جمعة الآلام كلها كما يُستفاد من تصريحات القديس ديونيسيوس الاسكندري [٢] وكتاب *La Didascalie* [٣] . فهذا الكتاب يأمر: « من اليوم العاشر (من القمر) الذي هو الاثنين من الساعة التاسعة الى الخميس تصومون ولا تتناولون سوى الخبز والملح والماء . والجمعة والسبت تنقطعون بتاتاً عن الطعام ولا تتناولون شيئاً . » [٤]

فاذاً حتى النصف الثاني من القرن الثالث ، لم يكن يمتد الصوم الا الى ستة ايام ، ولا نجد اثراً للصوم الاربعيني ، [٥] بل نجد فقط صوماً استعدادياً لعيد الفصح او « صوماً فصحياً » [٦]

ولنصل الآن الى القرن الرابع . فما هو اول تصريح بين ايدينا اليوم

---

(١) Cf. Mgr Duchesne: *Les Origines du culte Chrétien*, 2e édit. p. 231.

(٢) Cf. *Patr. Gr.* t. X, col. 1277.

(٣) Cf. *La Didascalie* par F. Nau p. 116.

(٤) *Op. cit.* p. 120.

(٥) لا ادري الى ما استند بولنجه (Boulanger) اذ كتب في تاريخه الكنسي صفحة ٩٥ : « ان الصوم الاربعيني قد تمّ استعماله قبل انقضاء القرن الثالث » . ومورّه (Mourret) هو ايضاً يضع مبدأ الصوم الاربعيني في القرن الثاني . (اللائحة الحبرية *Liber Pontificalis* I vol. 129) . فيقول مورّه في كتابه *Les Origines Chrétiennes*, 1914, p. 207 : يُنسب الى البابا تلسفورس (Télesphore) وضع الصوم الاربعيني ، ويُفهَم جذه الكلمات وضع قواعد لهذا الصوم ، لاننا متحققون من قول القديس ايريناوس ان ممارسات الصوم كانت سابقة للزمان الذي عاش فيه هذا البابا ، لكن نسبة هذه الشريعة الى البابا تلسفورس مغلوط فيها (Cf Mgr. Duchesne: *Le Liber Pontificalis* I, p. 129) وقول القديس ايريناوس اوقفنا عليه اوسابيوس وروفينوس . ويظهر ان مورّه اخذه عن روفينوس الذي اخرجه على غير وجهه .

(٦) Mgr. Duchesne, *Origines du culte Chrétien*, p. 231, note 5.

ينبئنا عن وجود الصوم الاربعيني ؟ اهو القانون الخامس من المجمع النيقاوي ؟ [١] وهل يمكن الاستناد اليه في اقرار هذا الصوم ؟

ان البعض من الكتاب استندوا الى ذلك ، كالسيد دوشين الذي يقول في كتابه المذكور ليس لدينا آثار عن الاربعينية (*Carême, Tessaraconta Quadragesima*) قبل القرن الرابع ، فاول نصّ يشير اليها هو القانون الخامس من المجمع النيقاوي ؛ وفونك (Funck) ؛ وڤاكندارد (Vacandard) في مقالتين عن الصوم في المعجم اللاهوتي ومعجم العاديات والليتورجية المسيحية[٢] ، ولكلر (Leclercq) في كتابه « تاريخ المجامع » [٣] وآخرين كبولنجه ومورّه وديكورنك (Deconinck) في مقالة في المجلة الكتابية[٤] . ونخصّ بالذكر بين المتقدمين ، القانونيَّين البزنطينيَّين الكبيرين بلسمون ، وزونراس اللذين هما ايضاً يريان في هذا القانون شهادة ناطقة عن الصوم الاربعيني.

على ان غيرهم كسلاڤيل[٥] الذي تبعه في رأيه المؤرخ الشهير كرومباخر (Krumbacher) ينفون نسبة صحة الصوم الاربعيني الى هذا القانون . فعند

---

١) اليك تعريب هذا القانون حسبما وضعه سلاڤيل في اصداء الشرق *Echos d'Orient*, Mars 1910 p.63 . «بخصوص الذين حرموا سواء اكانوا اكليريكيين او علمانيين، فالحكم الذي اصدره اساقفة كل مقاطعة هو : شريعة نافذة حسب القاعدة المطردة ان ما قطعه البعض لا يُقبل عند الآخرين . لكن يجب ان يبحث اذا كان الاسقف لم يترك الحرم لصغر نفس او روح خصام او عامل آخر من البغض . فراعاةً لدقة الفحص تبيّن انه يحسن ان يلتئم مجمع مرتين في السنة في كل مقاطعة . وبهذه الذريعة يتهيأ لاساقفة كل اقليم ان يجتمعوا ، فتفحص هذه القضايا كي يتجلى لعيون كل الذين كانوا على رأي الجميع في نزاع مع الاسقف اتم قد حرموا عدلاً ، حتى يستحسن مجمع الاساقفة تخفيف هذا الحكم . فيجب ان يعتقد هذان المجمعان : الاول قبل « الاربعينية » حتى اذا ازيل كل صغر نفس تقرب التقدمة الطاهرة الى الله ، والثاني ابّان فصل الخريف . »

٢) *Dictionnaire de Théologie Catholique*, de Vacant, t. II, col. 1728.

Dictionnaire d'Archéologie et de Liturgie Chrétiennes, de F. Cabrol, col. 2141.

٣) Leclercq, *Histoire des Conciles* t. I, p. 549, n. 2.

٤) *Revue Biblique*, 1910, p. 432.

٥) *Echos d'Orient*, Mars 1910, p. 63 sq.

سلاقيل كلمة (Tessaracnota) « اربعينية » تشير الى اليوم الاربعيني بعد الفصح اي الى عيد الصعود ، كما كلمة (Penteconta) « خمسينية » تدل على اليوم الخمسيني بعد الفصح ، اي عيد العنصرة .

وان كان قد تبع الرأي الاول جهابذة من اهل العلم ، فقد يبدو لنا ان الرأي الثاني ادنى الى الصواب (راجع البراهين في اصداء الشرق)[1] . وعلاوة على ذلك ان اصحاب الرأي الاول عندما تعترضهم الصعوبة الناجمة من ترجمة (Tessaraconta) بالصوم الاربعيني ، وهي انه بعد مدة مستطيلة لانعقاد المجمع النيقاوي لم يكن الصوم الاربعيني منتشراً وهذا غير ممكن مطابقته مع شريعة فرضها مجمع مسكوني ، يحاولون ايجاد ترجمة اخرى . ففرنك (Funck) يلتمح ، ببعض التحرز وبدون الحاح مثلما يقول ، الى تصحيح متأخر . فقد يكون القانون احتوى اولاً على كلمة «خمسينية» ، ثم ان بعض الايدي الطائشة وضعت لنا كلمة « اربعينية » ، وهذا الرأي يشير اليه بلسون ويفنده .

على انه وان لم توجد في القانون الخامس من المجمع النيقاوي بينة جلية على وجود الصوم الاربعيني ، فذلك لا يدعونا ان ننكر مطلقاً وجود الصوم في النصف الاول من القرن الرابع . لانه ، في هذه الحقبة ، لدينا تصريحات جمة تبرهن لنا وجود الصوم ، وسنوقفك عليها ، ايها القارئ ، فيما بعد . لكن يجب ان نتحاشى عن الغلو الذي لم يتحاماه بعض الكتاب الذين سبق الى وهمهم ان الصوم الاربعيني كان عاماً في الربع الاول من هذا القرن . وكلهم مجمعون على صحة نسبته الى القانون الخامس من المجمع النيقاوي . ومنهم بيفيريدج (Beveridge) الذي ، بعد ان ذكر المقاطعات الكنسية التي مثلت في المجمع النيقاوي ، استنتج : ان الصوم الاربعيني كان ممارساً فيها كلها ، لا بل في العالم المسيحي اجمع . ومورّه يجعل الصوم الاربعيني قبل القرن الرابع . فعلى رأيه ان المجمع النيقاوي وضع كيفية ممارسة الصوم في الكنيسة كلها . وبولانجيه يقول بانتشار الصوم قبل الفصح في الكنيسة كلها في اواخر القرن الثالث .

لكننا قد المعنا الى ما يجب فهمه من قانون المجمع . اذاً لا يمكننا التعويل

---

[1] *Echos d'Orient*, 1910, p. 63 et. 1911 p. 353 sq.

عليه لنبني حكماً على الصوم الاربعيني في مهد النصرانية . فيليق بنا بعد هذا التمهيد المسهب ان نلج الموضوع ونبحث :

١ً هل يوجد صوم اربعيني في القرن الرابع في انطاكية ، واورشليم ، والاسكندرية ، ورومة ؟

٢ً كم كانت مدته ؟

٣ً كيفية ممارسته .

اولا : وجود الصوم

١ – في انطاكية

كثيراً ما يشير الذهبي الفم الى الصوم الاربعيني في مواعظه الاحدى والعشرين الى الشعب الانطاكي (٣٨٧) وفي خطبه عن الاماتة والتوبة (٣٩٠) [١] :

ثم ان كتاب الدساتير الرسولية (*Les Constitutions Apostoliques*) ، وهو من اواخر القرن الرابع ، ينبئ عن عوائد السوريين ، فيقول : « بعد انقضاء ايام الفطاس يجب ان تمارسوا الصوم الاربعيني . » [٢]

٢ – في اورشليم

وجود الصوم الاربعيني في اورشليم يتكلم عنه القديس كيرلس في مواعظه الموجهة الى المتأهبين لقبول سر المعمودية (٣٤٨)[٣] والسائحة اتيريا (Ethérie)[٤] التي زارت الاراضي المقدسة بين السنتين ٣٨٥ و٣٩٦ . ونحن لا نحاول الاسهاب في القول عن هذه التصريحات لاننا سنعود اليها في القسم الثاني والثالث من هذه المقالة .

(١ Cf. *Homel. XVIII ad Pop. Ant.*, 1 ; *Bareille II*, p. 155. *Homel XVI, ad Pop. Ant.* 6. *Bareille II* p. 145. *Contra Judaeos III*, 4 *P. G.* t. XLIII. *Homel XXX in Gen.* 1 ; *P. G.* t. LIII col. 273.

(٢ Livre V, chap. XIII ; cf Pitra : *Juris ecclesiastici graecorum Historia et Monumenta*, Romae, 1864. p. 279.

(٣ Procath. c. IV ; *P. G.* t. XLVIII, col 865.

(٤ Cf. « *Peregrinatio* » en appendice à l'ouvrage de Mgr Duchesne « *Les Origines du culte Chrétien* » p. 478 sq.

٣ – في الاسكندرية

اما الكنيسة الاسكندرية فاول بيان نجده فيها عن حقيقة الصوم الاربيني كقانون يجب اتمامه[1] مأخوذ من الرسائل الفصحية للقديس اثناسيوس ، نحو سنة ٣٣٠.

وهل نستطيع ان نورد هذه الشهادة لاوريجانس عن وجود الصوم اذ قال: « عندنا اربعون يوماً مكرّسة للصوم؟ »[2] كلا لكون هذا التصريح لا قوة له ، لانه من وضع روفينوس. فالملظة العاشرة على سفر الاحبار حيث اخذ هذا النص لم تنته الينا الّا مجدّدة من روفينوس[3] . لكن هذه الفقرة لا تخلو من دلالة على وجود الصوم في عهد روفينوس.

٤ – في رومية

يتبادر هنا ايضاً الى الذهن ان الصوم فيها عريق في قدميه لان البابا لاون (٤٤٠–٤٦١) يعزو ابتداء الصوم الى عهد رسولي فيقول: « حتى تتم الشريعة الرسولية عن الصوم الاربيني[4] . على ان القديسين لاون وايرونيموس لم يصيبا في حقيقة اصل الصوم. نرجّح ذلك لان آباء كنيسة الاجيال الثلاثة الاولى لم يوردوا كلمة واحدة عن الصوم الاربيني . وهنا لا نضعف شيئاً من قوة شهادة الآباء لانه مثلما قاله P. de Smedt: « الآباء الاولون يعوّل عليهم في التقليد

---

١) قولنا قانون يجب اتمامه لان الصوم لم يكن يراعي حفظه مسيحيو مصر كما يقتضى ، ولذا نرى القديس اثناسيوس يوبّخهم على هذا التهاون سنة ٣٤١.»

٢) Cf. *P. G.* t. XII, col. 528.

٣) ويعزى الى روفينوس ايضاً تصحيف شهادة اخرى عن الصوم الاربيني ، اذا لم يأبه لها القارئ ، ولم يكن ذا المام كاف بالتاريخ ، يظن ان الصوم الأربيني كان مستعملاً في القرن الثاني . فالقديس ايريناوس في فقرة ارقفنا عليها اوسابيوس (*H. E.* l V, col. XXIV, *P. G.* t. XX, col. 501) يقول البعض (من معلمي الديانة) كانوا يظنون بوجوب صوم يوم واحد . . . وغيرهم اخيراً كانوا يمدّونه الى اربعين ساعة » فروفينوس قد بدّل هذه الفقرة عن غير عمد وجعل الاربعين ساعة اربعين يوماً (*P. G.* t. XX, col 502, note 78.) .

٤) ويقرب من هذه الشهادة تصريح للقديس ايرونيموس *Homel.* IV, 1 ; *P. L.* LIV, col. 238 *Ep. XLI*, n. 3) *ad Marcellam. P. L.* t. XXII, col 475.

الاجتهادي في الامكنة والازمنة التي عاشوا فيها ، لكن ليست لهم سلطة خاصة في الآثار التاريخية . »[1] ورأينا فيما سبق ما الذي يجب ان نفهمه من اللائحة الحبرية التي تعزو الى البابا تلسفوروس وضع شريعة الصوم الاربعيني .

وليس لدينا على كنيسة رومية بيّنات ساطعة عن حقيقة الصوم الاربعيني من كتبة القرن الرابع . على اننا نستطيع الجزم انه كان موجودًا فيها اقله سنة ٣٤٠[2] . ونستنتج ذلك مما عمله القديس اثناسيوس . فانه في لبوثه في رومية في السنة المذكورة وما بعدها لامه الرومانيون لان رعيته كانت تجتزئ بصوم جمعة الآلام فقط ، فتقدّم الى شعبه بانجاز الصوم الاربعيني كاملًا . فاذا كان الرومانيون قد القوا اللائمة على المصريين لاكتفائهم بصوم اسبوع يستنتج ولا مراء ان صومهم كان اطول ؛ واذا كان القديس اثناسيوس امر شعبه ان يكتفوا الصوم اربعين يومًا يُظنّ انه تقدّم الى شعبه فيما شاهده في عاصمة العالم المسيحي .

(للبحث صلة)

---

١) Revue des questions historiques, 1888, t. II, p. 331.

٢) هل يمكننا استنادًا الى فقرة مرقومة على شخص القديس هيبوليت (Hippolyte) وهي : « ويجب ان ينقطع الصوم اذا داخله يوم احد . » ان نستدلّ بوجود الصوم في كنيسة رومة في منتصف القرن الثالث ؟ لا نستطيع ذلك فهذه الفقرة تبرهن بامكان امتداد الصوم الى اكثر من سبتة ، ليس غير .